إشارات وهوامش حول جامع الزيتونة

الأستاذ إبراهيم شبوح

دُعيتُ لمهرجان الزَّيتونة وأنا قصيّ الدار، بعيدٌ عن بطائق مذكراتي ومصادر بَحْثي التي اعتدتُ استشارتها، وليس لي أن أعتذر، لشرف هذه المناسبة ومنزلة الداعي، وتساءلتُ عمّا يمكن أن أقدّمه وقد أفيدُ به.

لقد سبق أن تعرفتُ مليّاً على المَعْلَم التاريخي، ودققتُ النّظر في كل جُزْءٍ منه وكل إضافة وتجديد طرأ عليه، وهو كتابٌ مفتوح بفضْل النّصوص الرئيسية التي تسجل البدايات والزيادات والإنشاءات، وما تمثله من إجابات عن الكثير من التساؤلات الغامضة.

وقد رأيتُ أن أسجلّ بعضَ «الإشارات والهوامش» حول الجامع، إثارة لمبحث، أو اجتهاداً في تفسيرٍ، أو جمعاً وتقديماً لموادّ مُتَباعدة، تُعرض خدمةً للتاريخ؛ فهذه المؤسسةُ المَعْلَمُ تحتاج دراستها وتجليتها إلى جهود جماعية متآزرة، وإلى تنقيب ومقارنة، حتّى يتساوق فيها الإطار والمحتوى، وتستعيد تركيب كيانها حين تُسْعف الوثائق!

وفي هذه المشاركة المتواضعة، خواطر وملاحظات، ومحاولةُ بيان لبعض جوانب عمارة الزّيتونة القديمة، وشرحٌ لبعض النصوص التي ظلَّت على غموضها أحقاباً.

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلام في العمارة:

ماذا بقي من عصر التأسيس؟

إن مِنْ معايير قياس العُمْران في المدن الإسلاميّة، اعتبار مساحة المساجد الجامعة الموحَّدة التي لا تتعدَّد، واعتبار هيئتها، فإنّها مرجعٌ مقرّب لصورة اتساع المدينة ومنزلتها، وكثافة سكانها، ومستوى تَرفها وفنونها، وانتظام الموارد الاقتصادية في رحابها، وانضباط نظام الحكم فيها، ومدَى براعة الصنّاع في تشكيل المواد وتطويعها لتعبّر عن طاقة الإيمان؛ تلك بديهيّة أولى.

ومسجد مدينة تونس، أو جامع الزيتونة كما عُرف فيما بعد، يأتي بكل المعايير ثانيَ المساجد الجامعة القديمة في بلادنا، اتساعاً وفخامةً، ورقّةً في لغتِه المعمارية، وترسُّلَ عنايةٍ لم تنقطع عنه منذ النّشأة إلى أحدث أيامه.

فعندما تحولت هذه القرية البيزنطية «تونيس»[1] التي تُدعى أيضاً «تَرْشيش»، إلى مركز تجمّع دفاعي يقوم وريثاً جديداً لقرطاجنّة ـ كما تسميها مصادرنا ـ ووُضِعت عناصر التعبئة الروحيّة ليرابط الناس في «رادِس» حتّى يؤمِّنوا دار صناعتها النّاشئة بقَعْر البحيرة، ويبدأ الإعداد الجادّ لعصر البحريّة الإسلاميّة «الإفريقية» أواخر القَرن الأول للهجرة؛ تَذْكرُ إشارةٌ متأخرةُ التاريخ أنّ جامع الزيتونة من تَأْسيس الوالي القائد اللامع حسّان بن النعمان (بعد 86هـ / 507م)، وهي إشارة لا يُعرف مصدرها الأول وأسانيد نقلها وتواترها لدى الأخباريين إلى ابن أبي دينار ومن جاء بعده.

غير أن المصادر تُجمع ـ تقريباً ـ على نِسْبة بنائه إلى الوالي الأموي الحازم عبيد الله بن الحَبْحاب السّلولي في سنة 114 هـ / 732م. فما هو بيان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا الأثر التاريخي لتأكيد رحلته خلال الأزمنة التي نقدّرها لعُمره الممتدّ والضارب في القِدم.

إن خصوصيّة جامع الزيتونة أنّه يحفظ الضوابط الزمنيّة لأكثر مراحل بنائه وتجديده وإضافاته بشهادات دقيقة مؤرخةٍ ومحفورةٍ على الموادّ الصلبة وغيرها. وقد أبقى لنا بذلك على مرتكزات سمحت بتصنيف الطُّرُز وتَبيُّن مكوّناتها وتمييز الأطوار المتعاقبة.

وتبدأ هذه المرتكزات الموثّقة المؤرخة أواسط القرن الثالث الهجري في آخر أيام الأمير الأغلبي البنّاء أبي العباس أحمد بن محمد بن الأغلب (ذو القعدة 249هـ / 864م) وتتوالى من بعده.

وهذا الوضع يدعو لتصوُّر أن التجديد الأغلبي بنوعيّة بنائه وعقوده وواجهاته اعتمدَ حدوداً للجامع تقدَّمَتْه في الزمن، يُمثلها «بُرجان» قائمان في الزّاويتين الجنوبيّة والشرقيّة ، كشف عنهما في العُقود الأخيرة، ومواد بنائهما مختلفة، فقد اتُّخذا من حجارة غير مستوية السطوح، لتساعد على تحقيق الاستدارة؛ ويرتبط البُرْج الشّمالي الشرقي بالجدارين المتصلين به، وقد أقيما بأحجار كبيرة من غير النسق الأغْلبّي وقَطْعه، أما البرج الثاني فلم يكشف عن الجُدران المتصلة به بعد. وهذا التكوين يضفي على المَعْلم الصفة الدّفاعية لتجمّع عمراني ناشئ لم تُبْنَ الأسوارُ لحمايته بعد؛ وهو التكوين الذّي نجده في جامع مدينة سوسة الذي شُيّد قبل أسوارها؛ واتُّخذ هذا الأسلوب المعماري للاستحكامات الدفاعية ذات الأبراج في الزوايا.

وأُرجّحُ أن تلك البقايا القديمة بجامع الزيتونة، هي مابقي لنا من أصل بناء ابن الحبحاب، وقد حوفِظ عليه كما حافظ زيادة الله بن الأغلب على أجزاء من عمل مَن تقدَّمَه في بناء جامع القيروان.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معنى إثبات اسم الخليفة «المستعين» العباسي

ابتداءً من القرن الثاني للهجرة أصبحت المنشآت والمحدثات يذكر عليها أسماء الأقاليم التي استحدثت فيها أو الوُلاة الذين أمروا بصنعها، فقد ذكر اسم «إفريقية» ـ على ما شَهِدْنا ـ سنة إحدى ومئة للهجرة، ورأينا اسم عبيد الله بن الحبحاب منطبعا على الصُّنوج والأرطال التي صُبَّتْ من الزجاج الأخضر بأمره في معاملات أهل مصر، مؤرخة بسنة 110 هـ / 728م، ثم كانت أبنية الدولة تحمل اسم الآمرين بتشييدها وتاريخها، ومن أقدمها في بلادنا نصّ تأسيس قصر هرثمة بن أعين بالمنستير سنة 180 / 796م. وقد اندثر الآن وله صورة، ونصٌّ بناء زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب لرباط سوسة سنة 206 هـ / 821 م، وكُلُّها شواهد أمينة على حدود المسؤوليات والتصرف. ولا نكاد نجد ذكراً مباشراً لاسم أحد الخلفاء من بني أميّة أو بني العباس، غير ذلك الذّي يُطالعنا في الإفريز المربّع لقبة جامع الزيتونة، وفيه اسم الخليفة «المستعين» العباسي وتاريخ البناء سنة 250 هـ / 864 م.

وهذه الظاهرة افتُرِض لها بعضُ التفسير غير المقنع، ولا تزال بحاجة إلى بيان يوضّحه.

لقد بدأ تعميرَ الجامع على صورته الأغلبية تلك، أبو إبراهيم أحمد بن محمد في أواخر أيامه، وكانت وفاته في 13 ذي القعدة سنة 249 هـ/ 863 م، وولي بعده أخوه زيادةُ الله بن محمد، الذي أثنى عليه المؤرخون بالعقل وحسن الأثَر، ويبدو أنّه واصل عمل سلَفه بحزم، ولكنه توفي أوائل سنة 250 هـ/ 864 م في العشرين من ذي القعدة، بعد عام وأسبوع واحد من الحكم، ليجيء بعده ابنُ الباني الأول أبو الغرانيق محمد بن أحمد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(261 هـ/ 875 م) وقد أُنجزت بقيَّة المرحلة الأخيرة وكمُلت الإنهاءات على يديه. وعلى ذلك فقد عمل وتابع مشروع البناء ثلاثةُ أمراء متعاقبين، يمثّلون الوالد وابنَه وابنَ أخيه؛ ولم يكن أمام الأخير إلاّ أن يسجل اسم الخليفة على أهمّ عناصر الجامع وهو قبة المحراب، اجتناباً للاختيار أو لتعدّد الأسماء، وتأكيداً للارتباط المعنوي بالخلافة؛ ودفعاً لاسم ابن عمّه زيادة الله أن يُذْكَر في مشروع لم يَبْدأه.

وفوق واجهة عُقود بيت الصّلاة المطلَّة على الصّحن، قبل زيادة الرّواق(2)، الذي يحمل قُبَّة البَهْو، إفريزٌ عريض، به نصٌّ يوشّح الواجهة كلَّها، وقد كُتب بخطّ كوفي بارز كبير الحجم، يتضمن البسملة واسمَ الآمر بالبناء، وقد أُزيل بكَسْر حروفه، وقَبْلَه: [الامـ]، وأقرأُها [الأمير](3)، واسْمَ مولاه، الذي تمّ على يديه البناء سنة خمسين ومئتين، كما ورد في القبة نفسها، ثم آيات قرآنية، والشهادتين.

والاسم المزال هو اسم أبي الغرانيق محمد بن أحمد؛ الذّي رسم صورتَه صاحب البيان المغرب(4) بأنّ اللذّات غلبت عليه، وقد بقي على ذلك طوال مدّته نحو أحد عشر عاماً، وكان مقصّراً في حفظ مال الدولة، فلم يجد أخوه إبراهيم بعد موته شيئاً يُذكر؛ وقد جَهِد أن تكون ولاية العهد بعده لابنه أبي عقال(5)، واستخلف ـ لتأكيد الإقصاء ـ أخاه إبراهيم الذّي اضطرّ بعد موته أن يمتثل لضغط أهل القيروان ويَسْتأثِر بالإمارة الأغلبية دون وَلَد أبي الغرانيق.

وأعتقد أن إزالة الاسم تمت أيام الأمير إبراهيم بن أحمد، حقداً على أخيه وعلى ابن أخيه، ودفعاً لتخليد اسمه على أثرٍ لم يصنَعْه، واستهانةً بسيرته وذكراه.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا أذهب إلى أن الاسم أزيل عند بناء الروّاق الفاطمي الصنهاجي، المستند إلى تلك الواجهة، وإلاّ لكان اسم الخليفة العباسي أحقّ بأن يزيلَه أعداؤه.

قبة البهو ونظرية التطوّر

إن قبة البهو المتجلّية بإطْلالتها الرّشيقة على الصحن، نموذجٌ متطوّر فريد المثال بين القباب في بلادنا، وقد سجّلَ هذا التطور كلٌّ الذين كتبوا عن القباب التونسيّة، وأخصّهم L. GOLVIN و م. . زبيس، و أ . فكري.

ونظرية التطوّر واضحة في محتوى دلالتها اللفظيّة وليس في حقيقتها، فكلما عولجت العناصر المعمارية في الفترات اللاحقة، جاءت أجودَ وأكملَ وأكثر تلافيا لكل خلل قديم، وأوفر اهتماماً بالتطوير الجمالي؛ ولذلك كانت قُبّة البهو بجامع الزيتونة ، وهي أحدث القباب القديمة تاريخاً، فقد أقيمت سنة 381 هـ / 991 م، أكثرَ القباب التونسية رشاقة وتناسقاً وزخرفة وتألُّقاً معمارياً ملحوظاً، بفضل استعمال القاعدة المربعة المرتفعة من الخارج، وشموخ الرّقبة المثمنة، واعتبار المنظور في نِسَب التّقعير والتحديب من الخارج والداخل، واعتماد تقنية البناء التي يُصطلح عليها بالأبْلق، وهي تبادل مداميك الحجارة بين لون الحجر الرملي والحجر الأحمر، ونَثْر الأجزاء ذات الأحجام الهندسيّة الحمراء، ثم كثرة تَنْوع الحنايا وطواقيها في مختلف الجوانب. وقد برز كلُّ ذلك للنظر بفعل استغلال الفضاء الواسع الذّي تقوم فيه وحدها بلا مزاحم. فهل تَثْبُتُ نظريةُ التّطور أساساً للتّأْريخ، بملاحظة هذا العمل مقارَناً بغَيْره من القباب التي تقدَّمته.

إن أسماءَ بُناة هذه القّبة مذكورة مسجلة على وسائد تيجان الأعمدة الحاملة لها، وهم أبناء البُرْجيني وابن القفاص(6)؛ ومن حسن الصدف أنّه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في تاريخٍ سجّلتُه من سنوات السَّبْعين ولا يحضُرني الآن، زرتُ صحبَة الزّميلين، عبد العزيز الدولاتلي، وحامد العَجّابي، حماماً فاطمياً مُهِمّاً بُنِيَ للفقراء والمساكين، فيما نُسميه الآن «بسوق القرانة» وقد اكتشف صاحبه كتابةً كوفيّة على رُخامة مدوّرة قرأناها وحلّلناها وقتَها، وتحمل اسم مدينة تونس التي ترِدُ للمرة الأولى في نصّ فيما أعلم، وبها التاريخ واسم قاضي القُضاة الآمر بالبناء، وتخصيص وظيفة الحمام. ويعنينا هنا أنّه من عمل أحد مهندسي قُبّة باب البَهْو بالزّيتونة. وقُبّة هذا الحمام القائمة فوق الكتابة قبّةٌ ضَحْلة لم يُمَهّد لها بالقاعدة والرقبة كمُعاصرتها، وإنّما أقيمت على حنايا ركنية بسيطة.

وهذا يؤكّد أن نظرية «التطور» ليست مقنعة ولا دقيقة للتأْريخ، لأن قاعدة أو نظرية الوظيفة في العمارة هي الأساس المقدّر لدى البنّائين الكبار، إذ لكلِ مقام مقال. وهذا الدرس ليس له أمثلة توضّحه لنا غير قُبَّتَي الزيتونة والحمام الفاطمي بالقرانة.

سقايَةُ الجامع في أيام بني خراسان

في ظروف الاضطراب والتّفكك الاجتماعي والسياسي التي مرت بها «إفريقية»، وتحوّلها إلى «عمالات» مُنفصلة؛ كانت مدينة تونس إحدى هذه الوحدات التي أدارتْها أسرةٌ منها ترجع أصولها إلى قبائل صنهاجة، هي أسرة «بني خراسان».

إنّ بياناتنا عن هذه الأسرة ليست بالوَفْرة التي تسمح باستعادة صورة المدينة وتفاصيل حياتها، ووضع مؤسسة العلم فيها خاصة. فقد اقتصر من ذكرها من المؤرخين، وأهمُّهم ابنُ خلدون، على الإشادة برجاحة عقل أوّل أمرائها، الوالي عبدِ الحقّ بن عبد العزيز بن خُراسان (488هـ / 1095م)،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي اختاره وعهد إليه بولايتها أميرُ فرع القَلْعة من بني زيري الصنهاجيين، الناصرُ بن علنّاس (أعلى الناس).

واهتم أحمد بن خُراسان ثالث أمراء هذه الأسرة وأكثرهُم حيويّة وطموحاً، بقاعدته مدينة تونس، وأخذ يضفي عليها من مظاهر الإمارة والملك ما اعتبره بعضُهم «خروجاً» على تقاليد المَشْيَخَة التي حكمت بها أسلافُه قبله». فأمّن الطرق إليها، وبنى أسوارها وقُصورها، ويؤثر عنه حبه للعلم ومجالسته للعلماء(7).

وقد أبقت هذه الفترة الخُراسانية الغامضة أثراً واضحاً في عمارة «جامع الزيتونة» نتلمسه في الباب الذي أمر بعمله عبد الحق بن عبد العزيز في شهر رمضان من سنة 474هـ / 1082م، ويَصِل بين الرواق الشمالي الغربي من الصحن ومسلك سوق العطارين الحالي، ويدلُّنا هذا الباب بتركيبه المعماري أنّ أقبية السوق لم تكن موجودة وَقْتها، وعلى أنّه فُتِح استجابة لعملية توسع معماري في ذلك الجانب، احتاج لتيسير علاقة الناس بالجامع.

ولا أعرض لما أنجز في عهد هذه الأسرْة في عمران الجامع؛ فهو معروف، ولكن استوقَفَتْني إفادة كبيرة الأهمية، كتبت قريباً من تلك الفترة، وسجلها جغرافيّ مغمورٌ هو محمد بن أبي بكر الزُّهري(8) (توفي أواسط القرن 6هـ / 12 م) وقد اطلعت عليها منذ ظهورها في الستينيات، ولا أذكر أنها دُرِسَت واستفيد منها.

يقدم هذا النصّ وصفاً دقيقاً عن داخل الجامع وعن موادّ بنائه، ويذكر أنّ تيجان الأعمدة إلى جانب المحراب كانت مذهبة، ويشير إلى صحنه الواسع وجِبابه أو صهاريجه، ثم يصف الصحن الشرقي الخارجي المفروش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالرخام الأبيض والمرتفع على سطح الأرض نحو الستّة أمتار (15 ذراعاً) ويشرفُ على شارع البلد وعلى السوق.

والجديد في ما كتبه الزُّهْري، ذكرُه ووصفُه للسّقاية القائمة تحت هذا الصّحن، تتقدمُها سبعة عقود (أقواس)، في اثنين منها حَوْضان من الرّخام المحفور، عليهما أسَدان من نُحاس يندفع الماء من فَمِ كلٍّ منهما بلا انقطاع، على النسق الذّي نجده ـ بعد ذلك ـ في ساحة السّباع بقصر حمراء غرناطة. ويَصطفّ تحت كل عقد من العقود الخمسة الأخرى خمسةُ «نُهود» ـ كما سماها الزُّهري ـ صُبّت من النّحاس أيضا، تَشْرَب منها السابِلة بالارتشاف.

وقد دعتني هذه الصورة لهيئة الواجهة ومكوّناتها المعماريّة والزخرفية والوظيفيّة، للتوقُّف المتأمل لمعرفة مدَى ما تحمله من مُطابقة ممكنة لواقع الجامع المعماري، ولمعرفة التّقاليد الحضارية والفنية السائدة أيام بني خراسان؛ فانتهيت إلى ما يلي:

١– أن عدد عُقود السقاية السبعة المذكورة، تقابل وتناسب العدد نفسه من العقود المُسامِتَة لها والمطلّة على الصحن من الجهة نفسها. وهذا يعني تكرار المفردات المعماريّة المتقابلة والمتوازية على مُسْتَوِيَيْن، ولو أن عقود السقاية بأرضيّة الواجهة الشرقية عقودٌ غير نافذة.

٢– أن الناصر بن علّنّاس (481هـ / 1088م) صاحب القلعة الذّي أمَّر عبد الحق بن خراسان على تونس بطلب مشيختها كما قدّمتُ، صنهاجيٌّ من الفرع الحمّادي، عمل على تجديد الدّولة، وعُرف باهتمامه البالغ بالبناء والتعمير، وأورث ابنَه المنصورَ خاصة (498 هـ / 1105م) تقاليده في حبّ العمران، وحفلت مدوّنات التاريخ بآثارهما.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد وصلنا عن قصر المنصور الذي بناه «ببجاية»، صفةُ النّموذج الفنّي الذي قد يكون هو الذي اتخذه الخراسانيون في واجهة جامع الزيتونة؛ وذلك في القصيدة الجيّدة التي مدحه بها عبد الجبار بن حمْديس[9] (527 هـ / 1133م) وفيها يصف الماء المتدفّق من أفواه الأُسْد الرّابضة على بِرْكة القَصْر، هذا الوصفَ الشّائق:

وضراَغِمٍ سكنَتْ عرينَ رِئاسةٍ ... تركَتْ خريرَ الماءِ فيه زئيراً

فكأنّما غَشّى النُّضار جُسومَها ... وأذابَ في أفْواههـا البَلّورا

أُسْدٌ كأنّ سكونَها متحَرِّكٌ ... في النَّفْس لو وَجدتْ هُناك مُثيرا

وتخالُها والشمْسُ تَجْلو لونَها ... ناراً وألْسُنَها اللّواحِسَ نورا

ونجدُ الصورة نفْسَها فيما صوّره أبو بكر بن قُزْمان ـ وهو معاصِرٌ للحِقْبة تقريبا ـ واصفاً أسَدَ الرّخام الذي يتدفّق الماءُ من فيه[10].

وبهذا يكونُ النّمط الفنّيُّ ماثلاً في العصر نفسه، وسند العلاقة بين بني علنّاس في بجاية وبني خراسان أقاربهم في مدينة تونس، ثابِتٌ وطيد. ويضاف إليه تأثير آخر، هو تلك الصّلة التي ربطت متأخّري أمراء بني خراسان بروجار الثاني ملك صقلية الذي كان له شبه حماية[11] على مدينة تونس. وأثر عمارة صقلية واضح عندنا في تجدّد تقاليد العمارة الفاطميّة على أسلوبها الصقلي كما حفظته عمارة المُدَجَّنين هناك فيما بنَوْه من قصورٍ، كقصر العزيزة وقصر القُبَّة وغيرهما، ونجد أثر ذلك في المعْلَم الذّي نَعْرفُه بجامع القَصْر، وقُبّة ابن خراسان (سيدي بوخريصان).

ونشير إلى أن الأمير محمد بن زكرياء بن عبد الواحد أعاد بناء هذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السقاية شرقي الجامع سنة 648هـ / 1250م، وبعد نحو ثمانية عشر عاماً أكمل المستنصر الحفصي بناء الحنايا وأجرى عليها ماء عيون زَغْوان إلى قصر أبي فهر، وأجرى شيئاً منه إلى سقاية الجامع(12)، وقد شاهد الرحّالة العَبْدَري ذلك، وذكر أن ذلك الرَّشْح اليسير ـ كما وصفه ـ «سرِبَ إلى سقاية جامع الزيتونة، يُرْتَشف منها في أنانيب من رصاص، ويَسْتقي منها الغرباء ومن ليس في داره ماء، ويكثر عليها الازدحام»(13) وربّما لأجل ذلك زاد محمد بن الحسن بن محمد آخر القرن السابع سقايةً أخرى بأسفل مكتبته المشرفة على سوق العطّارين وسوق الطيبيّين، ممّا يلي الشرقي، حيث كانت سقاية المستنصر بالله.

ولا يزال في هذا الركن نصّ حفصي غامض محفور على الرخام بخط متداخل، لا أذكر أنّه قُرئ بعدُ، قد يعود إلى القرن التاسع، ويخص فيما يبدو مرحلةً من مراحل تجديد هذه السقاية.

قاعدة للثقافة الإسلامية

أنّ تونس من القواعد المبكّرة للثقافة الإسلامية، حقيقةٌ تاريخية لا مِرْيَةَ فيها، فقد كان يسميها أبو جعفر المنصور بإحدى القيروانَيْن، وكان بها خالد ابن عمران الذي أخذ علمَهُ عن التّابعين، ولعالمها عليّ بن زياد «منزلة في الضبط والعلم لا يفضله فيها غيره من علماء إفريقية» ،كما يشهد بذلك تلميذه سحنون بن سعيد(14)، فهو الذي جَسَّر لمذهب مالك وعَبَر به إلى هذه الربوع؛ ولم يكن هذا العالِم المقدَّر ابنُ زياد ظاهرةً منفردةً في المدينة، بل كان إلى جانبه مِثْلُ ابن أشرَس، ونكتفي بذكر أن المؤرِّخ الأغلبي أبا العرب التميمي صنّف طبقات عُلماء إفريقية، وعَنى بها القرويّين وعلماءَ تونس.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد قصّر مؤرخو الطبقات عن التوسّع في تَعدادهم ووصف مجالس دَرْسهم ومناظراتهم، وخلت التّراجم الباقية من الإشارات والإفادات التي نتمثّل منها علاقة جامع الزيتونة بنشاط أولئك العلماء الأوائل؛ على الرغم من أنّها صلة عِلِّيَّةٌ قائمة.

ولقد ضاعت المصنفات التي كتبها ذلك الجيل الرّائد، فلم يَبْق لعليّ بن زياد ـ على وجه المثال ـ غيرُ قطعةٍ من روايته للموطأ لا تُغْني، احتفظت بهامقصورةُ جامع القيروان، كما احتفظَتْ بجزءٍ صغيرٍ لأحد فقهاء تونس المتميّزين، هو الجزء الرابع من كتاب أدب القاضي والقضاء، لهيْثَم بن سليمان بن حَمْدون القَيْسي، الذي كان على قضائها بتولية إبراهيم بن أحمد سنة 277هـ / 890 م؛ ومن طريف ما يؤثر عنه أنَه خرج في سِفارة سياسيّة إلى صقلية أيام الشتاء وارتجاج البحر، ولم يُقْبَلْ له اعتذار في التخلّي، فأوصى أبناءَه بقوله: «أوصيكم بتَرْك طلب العلم ومجالسة أهله، فما أحَلَّنا هذا المحلَّ الضيّق إلاّ العلم والعلماء»، فغرق يوم الخميس من ذي الحجة لسنة 281هـ 895 م[15].

مشكلة خلق القرآن

يتردّد في تاريخنا الثّقافي أثناء تراجم المالكية خاصّة، أصداءٌ غير مُترابطة عن قضيّة فكرية ظَهرتْ في المشرق، وانتشرت في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وذهب الناس فيها أوْزاعاً وطرائق، وتولدت عنها مذاهب، وكانت في بعض أحوالها «فتنة» بالقدر الذي كانت فيه مجالاً لتعميق علم الكلام والاستنْجاد بالمنطق ليستقيم لكلّ فريقٍ ما ذهبَ فيه. تلك هي ما عُرف بمشكلة «خَلْق القرآن»، وهو موضوع قديم النشأة، إلاّ أنه أخذ أبعادَه الواسعةَ بمواقف المعتزلة، وخاصةً منهم جَهْم بن صَفْوان وبِشْر المَرِيسي اللّذان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يزْعُمَان أن كلام الله حادثٌ مخلوق، بسبب إيمانهم بالتوحيد المطلق، واعتقادهم أن وَصْف الله بصفاتٍ قديمة قائمةٍ به يُفْضي إلى القول بتعدّد القديم، ولذلك نَفَيا الصفات.

وقد بدأتْ هذه المسألةُ الإيمانية[16] تتَّسع وينتشر القول فيها عندما اقتنع الخليفة المأمون برأي أساتذته المعتزلة من أن القرآن مَخْلوق، وحملَ وزراؤُه الناسَ على هذا الاعتقاد يمتحنون به مُخالفيهم ويُقصونهم عن منابر التبليغ. واستمرّت هذه المحنة أكثر من قرنٍ، قَدَّم فيها علماء الملة تضحيات جساماً لتأكيد مُعتقَدِهم فيها.

وامتدت إلى إفريقية بكلّ المحتوى الذي أثارته الآياتُ المتشابهة، والقولُ بالتجسيم والاستواء، وكانت الأرضية الفكرية والروح الإيمانية في بلادنا قد استقرت على مذاهب أهل السّنة وبخاصّة مذهبَيْ مالك وأبي حنيفة، وكان الأغالبة، على تحنّفهم، يأخذون برأي المعتزلة، ويُوالون في ذلك سياسة الخلفاء، ولم تكن مناصرتهم لمذهب الاعتزال، الذي أصبح يمثّل موقف الدولة الرسمي، بقادرة على أن ترسّخ ذلك الفكر وركائزه الكلامية. ومن بين القائلين بخَلْق القُرآن القاضي ابنُ أبي الجواد[17]، وسليمان بن أبي عصفور[18]، وابن أبي رَوْح [19]، وعبد الله بن محمد بن أسود الصّدني[20]، وغيرهم، وتقَوّلوا على أسد بن الفرات[21] أنّه من القائلين بالخلْق، فنفاهُ عنه سَحنون.

وكان سَحْنون لا يرى رأي المعتزلة،ويُجاهر بخلافه والفِتْنَةُ في أوْجها؛ وعندما دعاه أبو العباس أحمد ليقول قولَه، التجأ وتوارى عند عبد الرحيم الرّبعي بقصر زياد[22]؛ وعندما خَفَّت الوطأة نجدُ الأميرَ إبراهيم بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحمد يعقِد مَجْلساً بحضرة قاضيه ابن الكوفي وابن الأشجّ وبعض النافية القائلين بخلق القرآن، لمناظرة أبي عثمان سعيد بن الحداد؛ وقد حفظ لنا أبو بكر المالكي نصَّ المناظرة[23].

ومع أن علماءنا لم يتركوا تُراثاً مكتوباً بجَدلهم في هذا الموضوع المتصل بالعقائد، إلاّ أن هناك أثراً باقياً عن هذا الموقف النافي لخلق القرآن، نجِدُه على بعض شواهد قبور مقبرة قريش بالقيروان، تَذكرُ أنّ صاحب الشاهد مات على الشهادتين، «وأن القرآن كلام الله وليس بمخلوق». ووَجَدْتُه محفوراً بخط كوفي بسيط، داخل إحدى مرامي السّهام برباط سوسة؛ وهذا الموقف هو الموقف المضاد لأصل رأي المعتزلة.

وهناك بين الموقفين موقفٌ ثالث لا يقول بأن القرآن مخلوق أو غير مخلوق؛ ويُعرف أصحابُه بالواقفة[24]، ويسميهم الإمام أحمد بن حنبل بالشُكّاك؛ ويكتفون بالقول بأن: «القرآن كلام الله».

والوثيقة المهمة الواضحة عن وجود هذا المذهب وأصحابه، ذلك النّص المحفور بالخط الكوفي على الرّخامة القائمة في محور محراب الزيتونة، وترجع إلى القرن الثالث للهجرة، وقد أدرج إلى جانب الشهادتين أن «القرآن كلام الله»، على مذهب الواقفة[25].

وبهذا يتضح لنا معنى الخبر الذي يقول إن محمد بن علي البجلي له كتاب في «الرد على الشكوكية»[26] ، وهذا دليل على انتشارهم.

غريب في الشماعية

أصبحت تونس في أيام بني حفص كما يصفها صاحبُ الرّوض المعطار[27]« قاعدة إفريقية وأمّ بلادها، وحضرة السلاطين من الخلفاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحفصيين، ومَهاجر أهل الأقطار من الأندلس والمغرب وغيرهما، فكثر خَلْقُها واتّسع يُسْرها ورغب الناس في سكناها».

وآثرها العبدريّ بالمديح الذي لم يستجِبْ به طبعُهُ لغَيْرها من المدن والعواصم التي دخلها؛ وكان لجالية إشبيلية من الأندلسيين أثرٌ في إنعاش حركة العلم بها. وعندما انتشرت المدارس بالمشرق رافداً منظماً لحركة التعليم وعوناً عليه، مؤُازَرة لمذهب الدولة حتّى يقف في وجه الفكر المشاغب؛ كانت المدرسة الشماعيّة(28) طليعة مدارس تونس التي قامت وأقامت النّموذج الأوّل لهذه المؤسسة الواقعة في الحيّ التعليمي، حيّ جامع الزيتونة، وبقيت ، على الرغم مما اعتورَها من تغيير، مأوى لإقامة طلبة الزيتونة إلى عهد قريب. ولم يسلم لنا نصّ وَقْفيّتها مثلما نجد لأشباهها في مصر والعراق، فنعرف شروط الواقف في الإقامة والمخصصات وتحديد الدروس والإشراف على ساكنيها وما إلى ذلك، ممّا ينفتح به باب تأْريخ الحياة التعليمية ونُظمها.

وكان الطلبة الوافدون يباشرون في إقامتهم ـ إلى جانب الدرس والتلقّي ـ نَسْخَ الكتب للإفادة من مواردها فِعْلَ الورّاقين؛ ويذكّر ذلك بالنُسَّاخ الذين كتبوا مجاميع الفقه المالكي في غرفهم برباطات الساحل.

وقد استوقفتني «لَقْطةٌ» صادقة لا تسعفُ بمثلها كتبُ التاريخ، كتبها أحد المقيمين بالشّماعية من الوافِدين من «بجاية»، في آخر نسخةٍ نَسخَها من كتاب المختصر في الفقه المالكي لأبي عبد الله محمد بن عَرَفَة الورْغميّ، وقد مُحي اسم هذا الناسخ ولم يبق منه إلاّ أنه «الحصيني البجائي»؛ وهي زَفْرة إنسانية شاكية متألمة، يعبّر فيها عن قساوة الغُرْبة، ويبُثّ أحزانه لفراق الأحِبّة وللشعور بالضياع. يقول في خاتمة هذا المخطوط: (29)«كان الفراغ منه ضحوة يوم الجمعة في العشر الأواخر من ربيع الثاني عام 886 عَرَّفنا الله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خيرَه، وأبعد عنّا مكائدَه وضَيْرَه، على يد العبد الفقير إلى رحمة مولاه، الغنيّ بفضله عمّن سواه، من اختطفتْه يدُ الحدثان، واعتورت عليه نوائبُ الزمان، من سَجّل على رسمه قاضي المكاره، بالنأي عن الأهل والأحباب وهو لذلك كارِه، من فلّ الدّهر حُسامَه،وعدا عليه وسامَه،من كان غُصناً ناعماً في دَوْح الأقاح، فأضْحى الآن كهشيمٍ تذروه الرياح».

وفي هذا السّجع من الأسى والضّيق والمرارة ما فيه، وذلك وجهٌ من وجوه التّيه لضاربٍ في الأرض يلتمس المعرفة في بلدٍ ناءٍ عن مواطن أهله وأحبابه.

* * *

هذا ما حضرني القولُ فيه، ولعلَّه، على تباعُد محتواه، لا يخلو من إضافة أو إثارة. وإذا كانت الحجارة قد حافظت على تعابيرها الواضحة المُفْصحة وأكدت لنا هذا الحضور، فإنّ ما تردَّد في رحاب هذا الفضاء من علم وفكر وإبداع أتى عليه الزّمن ولم يَبْق منه غير أصداء لا يزال لبعضها التألق والاشعاع.

لقد كان جامع الزيتونة في الفترات الحالكة جامعةَ التعبير عن هويَّة الذّات، والروح الحيّ المؤلف بين أبناء هذا الوطن وأجواره، بما أشاعهُ من علمٍ وَحَّد به مصطلح التفكير والتّفاهم، وقَرَّبَ وآخى بين المتباعدين؛ ووطّد قواعد الحوار. وقد ناضل منذ أكثر من قرنٍ ليُسَايِر العصرَ ويقفَ في المصافّ.

وكان هو المجالَ الحرّ الوحيد المنفتح على عالم المعرفة، وتحت ظِلال تلك السّقوف العتيقة صُنِعت الوحدة الحقيقيّة بين أبناء هذا الوطن من أقصاه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى أقصاه، تعارَفوا وأدركَ الواحد من الآخر قيمة بلاده و أحوالها وما يَضيرها أو يصنَعُ رفاهيتَها. وكانت الحياة فيه أيَّام الاحتلال الاستعماري طافحة بالتنغيص والتضييق والإثارة والتّشكيك والتأليب عليه، وجاء الردّ على هذا التحدّي بصيغٍ شتّى محفوظة في سجلّ مسيرة حياته، وكلها متَّسمة بالفداء. وفي أجوائه الرحبة الثائرة كانت يقظة الحس الجماعي، وإليه انتَسَب نوابغ الفكر والإبداع الذين تفخر بهم تونس، من عرفْنا منهم ومن لم نَعْرف.

إنّ هذا المهرجان لَفتةُ وفاء لواحدٍ من أعْرق مؤسّسات المعرفة في العالم الإسلامي واعتزازٍ به، وإنصافٌ عادِلٌ لتاريخٍ عُرِف بعضُه ولم يُكتب بعد، ومهمّة ذلك أمانةٌ في رقابنا ورقاب الأجيال.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحواشي

(1) انظر Mhammed FANTAR,Présence punique et Romaine a Tunis (Antiquités Africaines - Tome XIV,p.75.) وفيه بيان جيد لا سمَيْ «تونيس» و «ترشيش».

(2) بدئ في بناء المجنبات ورواق قبّة البهو والقبّة في شهر ربيع الأول سنة 380هـ/ 990 م ، وتم فيها العمل في جمادى الأولى سنة 385هـ / 995 م. ولعلها أقيمت ضمن أعمال الشكر والامتنان لله بمناسبة وصول سجلّ الخليفة الفاطمي العزيز بالله لأبي الفتح المنصور بن يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجي ليجعل ولاية العهد لابنه أبي مناد باديس.

ابن عذاري: البيان المغرب 1 / 246 ؛ م. زبيس: ديوان النقائش التونسية، النصوص رقم 6 ، 5 .

(3) افترض لها الأستاذ م. زبيس [الإمام]، وهو من نعوت الخلفاء الفاطميين، فلا يصحّ.

(4) المصدر نفسه 1 / 114.

(5) المصدر نفسه 1 / 116.

(6) زبيس: المصدر نفسه ، رقم 6 .

(7) ابن خلدون: العبر 6 / 164.

(8) الزّهري (محمد بن أبي بكر): كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، نشر في: Bulletin D´ études Orientales ,Tome XXI ,Damas,1968 ,p. 108. والفقرة الخاصة بتونس (رقم 282)، تسرب إليها تداخل وأخطاء في القراءة.

(9) الديوان 547 (تحقيق د . إحسان عباس) دار صادر – بيروت.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(10) ابن سعيد: المقتطف من أزاهِرِ الطُّرَف ،ص 263, القاهرة ,1984 .

(11) المراكشي: مختصر المعجب 108، دمشق 1978 .

(12) ابن أبي دينار: المونس 135 .

(13) العبدري: الرحلة 40.

(14) عياض: المدارك 3 / 85.

(15) مجهول: العيون والحدائق 4 / 1: 84، تحقيق عمر السعيدي (دمشق 1972). وعلّق المحقق بقوله: «كذا في الأصل، وسقط تحديد تاريخ هذا اليوم من ذي الحجة» .

(16) محاور الجدل الأساسية في هذه القضية، هي: القرآن كلام الله ـ مخلوق ـ أو ـ غير مخلوق، وقد فصّلوا القول باستفاضةٍ في الاحتجاج لكل مسألة، وتجمعت الفرق حول كل مذهب. وإلى جانب مسائل علم الكلام التي أثيرت تداخلت في الموضوع عناصر جدلية مع الشعوبية والنصرانيّة؛ وللالمام بالتفاصيل، انظر:

– الكناني (عبد العزيز بن يحيى): كتاب الحَيْدة – (تحقيق د. جميل صليبا – دمشق 1964).

– ابن حزم (علي بن أحمد): الفِصل في الملل والأهواء والنِّحَل 2 / 4.

– الأشعري (أبو الحسن علي): مقالات الإسلاميين ص 582 – نشر هـ. ريتر – فيسبادن 1980.

– النّسفي (ميمون بن محمد): تبصرة الأدِلّة في أصول الدين ، ص 393 – تحقيق د. حسين آتاي – أنقرة 1993.

– عبد الجبار بن أحمد (القاضي): المغني في أبواب التوحيد والعدل ، الجزء السابع، في خلق القرآن – تحقيق إبراهيم الإبياري – القاهرة 1961.

– جدعان (د. فهمي): المحنة، عمّان 1989.

(17) ابن عذاري: المصدر نفسه 1 / 110.

(18) الخشني: طبقات علماء إفريقية ،219 (نشر م. بن شنب – الجزائر 1914). وله تأليف عن مذهبه في خلق القرآن.

(19) المصدر نفسه ، 222.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(20) المصدر نفسه ، 238.

(21) المصدر نفسه ، 82.

(22) المصدر نفسه ، 227 ؛ المالكي: رياض النفوس 1 / 426.

(23) المالكي: المصدر نفسه، 2 / 70.

(24) الأشعري: مقالات الإسلاميين ، 602 ؛ جُدعان: المحنة ،37.

(25) يوجد النصّ نفسه «القرآن كلام الله» داخل قُبّة جامع سوسة؛ ويذكر التجاني (الرحلة 26) «أن بصحن جامعها بيت قد كتب فيه بخط قديم نقشا في الحجر، القران كلام الله ليس بمخلوق». وقد اندثر هذا النصّ، وهو فيما يبدو تسجيل لموقف أهل المدينة السنّي مقابل الاتجاهات المضادة.

(26) الخشني: المصدر نفسه، 213 .

(27) الحميري: المصدر نفسه ، 143، (تحقيق د. إحسان عباس) ، بيروت.

(28) الدولاتلي (د. عبدالعزيز): مدينة تونس في العهد الحفصي.

(29) شبّوح، (إبراهيم): المخطوط ، ص 27 (رقم 39) . دار أليف، تونس 1989.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net